قبل سنين ، حينما كنا نمرّ امام ساحة ترفلغار ، كنا نجمد فيها كل مرة ، وكانت تقول : « ها انت » ، وتشير الى نصب نلسون السامق الراسخ ، ثم تشير الى احدى الحمامات العابرة وتضيف : « وها انا » . وكل مرة كانت تغيب ، كانت تعود لخاطري صورة النصب والحمامة . في احدى فترات غيابها كتبتُ هذه المقاطع المغرقة في الرومنطيقية ، وقرأتها عليها ، بلغتها ، عندما عادت . ولما غابت بعدها من جديد كان غيابها آخر غياب . فانها لم تكن حمامة وحسب ، بل كانتها وكانت غرابا .

ا . ع .

أسعد عاصي

آثار أقدام

من هذا العلوّ الشاهق انظر . لا ارى الناس. والحافلات والمباني تَغبَش متحرك وساكن . وانا جامد في هذا العلاء ، عاجز حتى عن الدوار .

ولم اكن ، من قبل ، اعرف ان في الصخر ايضاً درجات ، فاذا بالحمامة الغريبة تترك الصخر الذي صُنعتُ منه ، حين تولّي ، اصلبَ منه بالامس .

واذا ذاكرتي كعينيّ ، نصفها ميّتٌ ، وكلّ ما لا يتصل بالحمامة الغريبة مُضاعَ .

من تحتي المظاهراتُ والهتافات العنيفة ، والعاشقون والباحثون عمن يعشقون، والمصورون والنشالون والشرطةُ ، والاجانب والمواطنون ؛ وعن قريبٍ القصورُ والمجالس والمتاحف والكنائس ،

وطرفي لا يريم .
انها عيني المبصرةُ ، رسولةُ الفواجعِ ؛ لا الخالية . لا تغمض ولا تكلّ . ولا يحجب عنها الرؤيةَ ليلٌ او ضباب .
ابداً تحدق بالبقعة ذاتها من الفضاء ، حيث رفّ جناحان مرةً ، لوقت قصيرٍ ، ولم يعد يرفرف الجناحان .

ويتحدثون عن شموخي ، فلا يدور ببالٍ ايُّ وهنٍ في ذلك النُصُب المعزول عن الارضِ ، ايُّ شحوبٍ ، ايّ فراغ .
ولا يعرف احد انّ ما من يدٍ تمسح عن الجبين العرق ، ولا يلحظ احدٌ كم اسودّتْ وعمقت جيوبُ العيون ، وكم ارتسمتْ على الوجه مرارةٌ ولا امل .

الفراقُ لم يكن بالمفاجيء .
في كل لحظة كانت بذورُه . كلُّ عشية كانت تفحُّ :لا صباح . وكنا كل صبحٍ شبحين يُبعثان ، وصوتُها على الهاتف كان يجيء من البعيد البعيد .
الهلع من انْ لا مستقبلَ كان يعطي لحظة الحاضر ابعاداً جديدة : الهلع من انْ لا مستقبلَ كان يخدّشُ ، يقلّصُ ، لحظةَ الحاضرِ .ومع كل خاطرين وكل نظرتين كان السؤال وكان الهلع : اتكون هذي اللحظةَ الاخيرة ؟
الفراقُ لم يكن بالمفاجيء . لكنه حين جاء لم يخفّف من هوله انه لم يكن بالمفاجيء .

من تنقّلاتي ببحرٍ وبحر ، من انتصابي الصاقع وسط المدينة ، شهدتُ كل انواع الاخضرار .
خضرةَ الانهار والامواه ، خضرةَ الاعشاب والاشجار والمتنزّهات والازهار ، خضرةَ الاثواب واللوحات .
كلَّ ظلال الاخضرار شهدت ـ كلُّها اصبح شاحبا عَكِرا :
غيرَ عينين خضراوين خضرةً غريبة .

ويقولون ان في الساحة، من دوني، حماماً كثيرا ، وفي الجوّ اكثر.
لا ارى واحدة .
ام انها تحوّمُ ، حين تحوّمُ ، امام عيني الميّتة ؟

سواها من الحمامات ، أجلْ ، ينسبن امامي ، تعبث اجنحتُهن بوجهي ، من حين لحين .
يلمسن الصقوعةَ والجفافَ ويولّين مسرعات .
وان تلكأتْ قليلا واحدةٌ ، فلأنهـــا تجد في فجوات الصخر اراحةً لاحشاء زهيدة .

ومن حينٍ لآخرَ كانت تمرّ امامي ، من بعيدٍ ، حمامة .
فقيدةٌ ؟ منفيةٌ ؟ عاصية ؟
تمرّ وترتدّ ، وحيدة . وكلما رأيتُها ، وادركتُ ان غـــيري يعاني ربما ما اعاني ،
كانت تمسّ عينيَّ عصا موسى ، ويبتلُّ الحجر ،
واستعيد وجهاً قُدسياً دامعا بكنيسة موحشة ، قفراءَ حتى من بخورٍ ونَغَم .

اقفرتْ ، منذ غبت ، الديار :
تُرى ، لحق الخصبُ بكِ ؟

« **كتاجر يطلب** لآلىء حسنة ، فلما وجد لؤلؤةً واحدة كثيرة الثمن ، مضى وباع كلّ
ما كان له واشتراها » .
وحدكَ ، يا يسوعُ ، تستطيع ان تخفّف عني وطـــأةَ السؤال الملحّ :
وماذا اذا ، بعد ان باع كل ما كان له واشترى اللؤلؤةَ الواحدة التي لا تُقدّر بثمن ، افاق
ذاتَ صبحٍ حالك فـــالفى اللؤلؤةَ الواحدة قد اختفت ؟
وماذا اذا ، بعد ان باع كلّ ما كان له واشترى اللؤلؤةَ الواحدة التي تُقدّر بثمن ، افاق
ذاتَ صبحٍ حالك فالفى اللؤلؤةَ الواحدة قد اختفت ؟
وحدكَ ، يا يسوعُ ، تستطيع ان تخفّف عني وطأةَ السؤال الملحّ .

ومنذُ انسحبتْ بسمائكِ لم ينقشعِ الضباب .

ونحنُ معاً لا حاجةَ لكلام .
كلُّ كلمةٍ تتلفّظين بها عذراء ، لها لونُ عينيكِ انتِ وفيهـا غموضك . كلُّ عبارةٍ تتفوهين بها زواجٌ شاذٌ بريء .
صوتكِ ،الذي يبدو منفصلاً عنكِ اولاً ، ويبدو بعدهـا جزءاً منكِ زوالُهُ كزوال عينيكِ او لفتـةِ وجهكِ او تبدّلِ قسماتكِ المفاجيء ، يُضفي على كلماتك الجديدة اثواباً جديدة .
والكلامُ العاديُّ ذو معانٍ ،والفاظكِ المفردةُ المقاطعِ نوافذُ تطلّ على حدائقَ وصحارى وملاعبِ ثيرانٍ ومعابد .
ولكنْ ، ونحنُ معاً ، لا حاجة لكلام .

طوالَ ايامنا ، التي بدتْ اقلَّ عدداً حتى من الواقع ، وان عمرتْ بما لا تعمر به السنون ، لفظةٌ وحيدة بقيتْ اجنبيةً على معجمي ، وناءتْ بها وبمشتقّاتها معاجمُ الغير .
عصيتْ ابداً على شفتيّ ، ولم تكونا لتقولاها ولو لم تعصَ عليهما .
كم رسالةٍ كتبتُ لكم امرأة . كم فلذةٍ في قصيدة انبعثتْ بعد سنين ، ولادةً مسيخةً ، من معرفة لامرأة . كم آهة سخيفة وليلة ارق . كم تشابكِ لاصابعَ عشرٍ ونطّ ارعنَ بـين خيوطِ المطر . كم شذىً مركّبٍ وكم عطورِ افرازٍ منفّر : وصحتُ « احبّكِ » ، او همستُ ، او كفرتُ ، او ابتهلت .
لا . لفظةٌ وحيدة بقيتْ اجنبيةً على معجمي : ولم تكن لتُدجّن .
ولن اقدّسَ لفظةً ، باستعمالها لكِ ، كنتُ قد لوّثتُها باستعمالها لسواكِ .

في الصبح اجثو ، اعرّي نفسي امامه .
اروي له الكبائرَ والصغائر ، ما تمّ وما لم يتمّ . ارفعُ التقاريز ، واعرقُ اعترافـاتٍ ، واستسديه نصائح . اكرّر ذاتي ، من صباحٍ لصباح . واستحدثُ ، كل مرةٍ ، طلباً او طلبين ، واشكو مرارةً جديدة ، واشكر لومضة غيرِ منتظَرة .

ولم ادرج اسمَكِ في تقاريري ، ولم ابـــحْ له عنكِ بشكوى او بشكر . واختصرتُ الصلوات ، لاعودَ اليكِ ، لوحدي ، استأثرُ ، ان اسطعتُ ، بكِ ـ
ولم اشأ ان يشاركني اللهُ فيكِ .

واعياً واعياً
اسلمتُ لكِ شعري النذير .

لانْ اقولَ اني فقدتُ بفقدها كلَّ شيء ، انْ لا رفيقَ لي ولا اخَ ولا بيتَ ولا مطمحَ ولا انشغال ، لأنْ اقولَ الكَذِب .
فقدُها لم يذّيلْ كوارثَ ، لو انها كانت كلَّ شيء ففقدتُ بفقدها كلَّ شيء .
فقدُها ذّيل الكارثة ، لاني اذ فقدتُهـــا ، وظلّ لي رفيقي وظلّ اخٌ وبيتٌ ومطمحٌ وانشغال ، لم اعدْ ارى غير حَلَكٍ ويبابٍ وخواء .

المصارعُ الموجَ ، الغريقُ ان استطال الصراعُ دقائقَ ، بايّ بأسٍ يهجم على الخشبة ، بأيّ عزيمة .
سرابُ البحر اخشاب ، تراها العين بين موجةٍ وموجة ، ولا ترى من ثمّ شيئاً .
يتمسّكُ ، يتشبّثُ ، بالخشبةِ الغير سراب .
تحمله ، يحملها ، للامان .
غيرَ هجومه ، غير تمسّكه وتشبّثه ، بيخت : يحمله اليختُ للامان ، ولا يحمل له هو ولا لربّه وضيوفه وحفلاته ، غيرَ ازعاجٍ وتشويشِ رتابةٍ واقاصيصَ تُحكى في الغد .
غيرُ هذا هجومُه وتمسّكُه وتشبّثُه بالخشبة :
تحملُه ، يحملُها ، للامان .

نوءٌ ونحنُ معاً ، ونوءٌ ونحنُ مفترقان .
ومن نقرّعُ ، نلومُ ، نسبّ ، لانكِ بحرٌ هيوجٌ وذراعيّ موثوقتان ورجليّ من رصاص؟

واذا ما قُذفتُ مرةً تلوَ مرة وسطَ ــ دونَ ومن بعدها فوقَ ــ امواجكِ ، فهل اهلّلُ لمنجايَ ام اتوقُ ، احنُّ ، للغوصِ للارتماء في اعماقكِ ولا صعود ؟

في تخبّطي في اليمِّ ، ولا برّ ، وتخبّطي بين حبِّ بقاءٍ وحبِّ فناء ، ضياءٌ قصيٌ التمع . تراخى الموجُ تحت اصراره ، ولا خبوَ ، وكأنّ الضياءَ يدٌ ولهى تُداعبُ ، تريحُ ، فوضى جسمٍ عصوف . وامخرتُ ، منفلتاً من فنـاءٍ وماضٍ ، اقبّلُ المنارةَ القابلة .

ودخلتُ . ورأيت .

منارتي المنقذة صقلبٌ مُفرشِخ . ضيائي المنجّي عينٌ تتوقّدُ وسطَ جبينه .

وفتحتُ عينيّ ، ولم اعدْ ارى . في جوفه استقرّيت .

يا من يظنّ ندبي ناجماً عن هذي النهاية، يا من يظنّ اني جُررتُ جرّاً للفاجعة ، يا من يظنّ مفاشلي تتوّجتْ بهذا الفشل :

كيف اقولُ لك ، كيف اقول : ان ندبي لواحدٍ ، ان ندبي لواحد ،

ان ندبي لاني لُفظتُ ، فيما بعد ، من جوفِ الصقلبِ ؟

ماولةٌ انا، كنتِ تقولين ، ولم تكن من حاجة لان تقولي .

وكنتُ اذا اسمعكِ تقولينها ، او اشهدكِ تدلّلين ، عن غيرِ وعيٍ ، عليها ــ ارتجف : انتظرُ (لا اعرفُ ، اليومَ تأتي او غدا) اشارةَ اقصائي ، او انسحابكِ ، او بقائنا معاً مُقصىً ومنسحبة .

ماولة انا ، تقولين ، وماذا يُفعَل بالنواة الاّ ان تُبصَق وقد أُكلت الثمرة ؟

ثمرة ؟ ورأيتُكِ شجرةً ، متعدّدةَ المواسم ، لها في كلِّ موسم شذىً وزهرٌ واوراقٌ وقطافٌ وفير .

لكلِّ شيءٍ ثمن ، وابهظُ الاثمان ثمن الهناء .

كلما ضحكتُ مرةً ادركتُ اني سأصفَع . كلما انزاحت الكوابيسُ المعشّشةُ المستوطنة تهيّأتْ اذنايَ لدقّاتِ ناقوس . كلما انتهى عصرُ فحشٍ ومجازرَ وانتهاكٍ وكفرٍ

وجثوتُ كجوستينَ بريئة نقيّة بعدَ الفِ الفِ اغتصاب، وعفّرتُ صدري ووقفتُ فاتحاً ذراعي رافعاً رأسي للسماء، انقضّتْ من السماء صاعقةٌ اغتصبتني الاغتصابَ الاخير .
وكيفَ ، بعدُ ، لم اكن اتوقّعُ كلَّ هذا الشقاء، بعد اسابيعنا الخمسةِ في الخريف ، وسبعةَ اسابيعَ في الشتاء ؟

لن اقولَ بعدُ : تكرّمي يا سماء .
لكلِّ امرىءٍ ميتةٌ ، ومرّتينِ متُّ من قبل ان اموت . وقلتُ : بخُلتْ عليّ السماءُ بالفِ شيءٍ ، فلتجُدْ عليّ بهذا . ورضيت . بتحسّرٍ وتجرّحِ قلبٍ رضيت .
ومرةً ثالثة ؟ لا ، لم اكن احسبُ ان السماءَ ، حتّى ، قادرةٌ على مثلِ هذا الكرم .

واعرفُ انها هناك . اعرف ان « الهناك » ناءٍ ، لكنه مثلَها هناك .
لستُ ادري : وحيدةٌ هي ، او بسربٍ ، او وحيدةٌ بسرب .
اعرفُ انها هناك ، ان جناحيها بحرٌ كانَ هواءً ، وهديلَها تتشرّبه اذنان، ونعمةَ حضورها ليست تُبذّر .
ولستُ ادري ان كان مجثمُها الجديدُ يدري ما كنتُ ادري: ان هذي الحمامة ، كحماماتِ الاساطيرِ ، رسالةٌ من سماء .

غبطتي التي تبقتْ ، وعزائي ، يقيني انها هناك .
وارتعشُ ، ويرتعشُ معي الاسودُ الاربعةُ تحتي ، كلما سمعتُ رصاصةً او متفجّراً من ايّ نوع .

وغداً ان تم ما لن يتمَّ ، وحلّقتْ فوقي ، امامي ، من جديد ،
إن رفرفتْ في الجوِّ (والعصرُ مذْ رفرفتْ عصرُ معجزات)، ولم تفيءِ للحظة ، ولم تمنحْ جبهتي او انفيَ ظلا ، (ظلُّها كان يهزُّني ، ويخترقني كفأس) ،ومرّتْ بدونِ نظرة ، بدون اتّصال ،
فماذا تُراني افعلُ ، ويداي من حجرٍ وقلبيَ يأبى ان يكون من حجر ؟

واهدأني، لو انّ في الهدّ جدوى ؛ واستريحُ ، اخيراً استريح .
لكنني اعرفُ عمرَ الراحة ، وان مواطنيّ الصالحين انتحلوا البعثَ ، وسيُنفقون فوق ما يُطيقون ويدكّون نصفَ انصابهم القائمة ، ليرفعوني من جديد ،
ولأشقى من جديد ؛
ويخلد الشقاء : ومن شاء الخلودَ لم يحقّ له ان يُمليَ نوعَ الخلود .

لانك اعجوبةٌ ، كان لقاؤُنا اعجوبةً وفراقُنا اعجوبةً ووصالُنا اعجوبة .
واعرفُ ان المهنّدَ الباترَ كلمةٌ اخيرة ، وان للفصلِ الفَ نصلٍ وليس للوصلِ من اداة .
لكنْ لانكِ اعجوبةٌ ، اعرفُ ان كل ما يتعلّق بكِ اعجوبة ، انّ ارحامنا انشطُ من القبور ، وان المهنّد من ورقٍ والفصلَ والوصلَ سيّانِ .

لا ــ اصرخُ اليوم كلّه ، مذْ نأيتِ . لا ــ يقولُ رأسي وتقولُ اعصابي وتقولُ يداي .
لا ــ عندما استعيدُ كل ما كان ، وأشكُّ حتى بماضٍ كان عصرَ سعدٍ وعجائب ، اشكُّ حتى بماضٍ هدّتْهُ خيانةُ الحاضرِ .
لكنني في الاماسي وفي لحظاتِ الحُلُم ، في ابتهالاتي وعندما تعود لوجهي البسمةُ التي خلتُكِ جرّدتني منها يومَ نأيتِ (كما جرّدتني من كلّ شيء) ، لا اقول الا :
نعم نعم
نعم .